مقاربة سوسيولوجية للثقافة والتربية: بين الحداثة والأصالة

أ/ حميد حملاوي
جامعة قالمة

الملخص :

من الحقائق المؤكدة في تاريخ الأمم والشعوب، أن الثقافة والتربية تعتبران الركيزة والعمود الفقري لأي بناء اجتماعي في حالتيه الاستاتيكية والديناميكية. ومن ثم تصبح مسألة اكتساب المعرفة والقيم والرموز، والعناصر الثقافية للجماعة وكافة أنماط السلوك، بمثابة الغرس والإعداد لمواجهة تحديات الحاصر والمستقبل.

وانطلاقا من هذه الحقيقة، باتت العناية بالثقافة والتربية وتقاطعاتهما، مطلبا ضروريا لولوج مجتمع المعرفة.

Abstract :

Among the facts proven in the history of nations and people that culture and education are considered as the substrate and skelptom of any structure in the social state static and dynamic.

It thenbecomes a matter of acquisition of knowledge values and symbols and cultural elements of the society and all patterns of behavior, as a preparation for present and future challenges.

As a conclusion, cultural and educational care is a necessaryrequirement to getinto the knowledge society.

مقدمة:

ارتبط مفهوما الثقافة والتربية، كعمليتين اجتماعيتين متلازمتين، شأنهما في ذلك شأن معظم المفاهيم السوسيولوجية- التي اشتقت من لغة الحياة اليومية- بمعاني كثيرة ومتعددة، كشفت في مجموعها عن تباين الأطر والسياقات التي استخدما فيهما، من جانب علماء الاجتماع. ونعترف منذ البداية أن محاولتنا هذه تتسم بالطابع الانتقائي، نظرا لتشعب جوانب التراث العلمي وتعددها بدرجة ملحوظة .

ونستطيع، بهدف الإيجاز والتبسيط، أن نبدأ بتحديد هذين المفهومين كل على حدة، آخذين بعين الاعتبار ذلك التداخل والتشابك والترابط والتفاعل القوي الذي يحكم حركتهما كمكونين أساسيين، للبناء الاجتماعي.

أولا- في مفهوم الثقافة ودلالاته:

تعد الثقافة من المفاهيم الأساسية التي تناولها علماء الانتروبولوجيا و الاجتماع و التربية، في دراساتهم و أبحاثهم و ربطها بمفهوم التربية ، لما للمفهومين من تفاعل و تشابك من حيث الشبكة العلائقية التي تتم بين الأنساق الاجتماعية و الثقافية و المؤسساتية و الأجيال.

وفي هذا الإطار،عرف "تايلور " " Taylor " الثقافة بأنها " ذلك الكل المركب الذي يتضمن المعارف والعقائد والفنون ، و الأخلاق ، و القوانين ، و العادات ، و أي قدرات و خصال يكتسبها الإنسان نتيجة لوجوده كعضو في المجتمع" [1].

و عرفها " لينتون" " Linton " بأنها " تنظيم للسلوك المكتسب و لنتائج ذلك السلوك ، يشترك في مكوناتها الجزئية أفراد مجتمع معين ، و تنتقل عن طريق هؤلاء الأفراد " [2].

و يحتاج هذا التعريف إلى بعض التوضيح ، فعبارة " تنظيم السلوك المكتسب " تعني وجود نمط معين و النمط هو أسلوب السلوك المرتبط بحاجة أو وظيفة في الحياة الاجتماعية ، فطريقة تربية الأطفال في مجتمع ما مثلا تسير وفقا لنمط معين ، أما عبارة " السلوك المكتسب" فقد وضعها " لينتون" للتمييز بينها و بين الدوافع الفطرية أو أي سمات أخرى موروثة .

كما أن التعريف يتضمن الإشارة إلى نتائج السلوك ، و إلى حاجة الأفراد إلى المشاركة في عناصر الثقافة و قيامهم بنقلها .

أما " لسلي وايت" Leslie A. white " فقد عرف الثقافة بأنها " تنظيم لأنماط

السلوك ، و الأدوات (الآلات و الأشياء التي تعملها الآلات) و الأفكار (المعتقدات والمعارف) و المشاعر (الاتجاهات و القيم) التي تعتمد على استخدام الرموز .

فالثقافة بدأت ، كما يقول " حينما أخذ الإنسان كحيوان متقدم ناطق يستخدم الرموز ، و بسبب هذه السمة الرمزية تنتقل الثقافة بسهولة و بسرعة من كائن إنساني إلى كائن إنساني آخر ".

و بهذه الطريقة تصبح الثقافة كلا مستمرا ناميا يكتسب عناصر جديدة ، و في عملية النقل هذه تضيع بعض عناصر الثقافة ، و يتغير بعضها الآخر ، و تضاف إليها عناصر جديدة ، و لكن الثقافة نفسها تستمر و لذلك يقول وايت " إن الثقافة عملية رمزية ، مستمرة ، تراكمية ، و تقدمية " [3].

و لعلنا نستطيع أن نستنتج من هذه التعاريف أن الثقافة ليست أمرا خاصا بطبقة معينة من الناس أو مجموعة مختارة منهم ، و إنها لا تعني فقط تلك المظاهر من السلوك الإنساني التي تشير إلى الذوق و التهذيب و الاهتمام بنوع ما من الفنون ، بل هي مفهوم يعني " أسلوب الحياة لمجتمع ما ، ذو بعد زمني ينتقل من جيل إلى جيل ، و يتعرض للتغيير المستمر بدرجات متفاوتة من مجتمع إلى آخر ومن عنصر إلى أخر .

و هي بهذا المفهوم تشمل كل القيم و النظم المادية و الاجتماعية لأي جماعة من الناس ، برابرة كانوا أو متمدنين ، فتشمل قيمهم و نظمهم السياسية ، و الاقتصادية، و الاجتماعية ، و الدينية ، و الفكرية كما تشمل عاداتهم و اتجاهاتهم ، و آدابهم وفنونهم و الكيفية التي يمارسون بها وجوه نشاطهم المختلفة، و هي تنقل من جيل إلى جيل، ومن جماعة إلى جماعة عن طريق الرموز(اللغة).

و قد يزداد مفهومنا للثقافة وضوحا حينما نحلل عناصرها و نشير إلى أهم ما يميز طبيعتها و عملياتها.

1. **<u>عناصر الثقافة :</u>**

يقسم البعض عناصر الثقافة إلى نوعين :

ا- عناصر مادية: تتضمن العناصر للثقافة كل ما ينتجه الإنسان و يمكن اختباره بواسطة الحواس.

ب- عناصر غير مادية: و تتضمن الأعراف، الأساليب الفنية، و قواعد السلوك ، الأخلاق والقيم و العادات و التقاليد و كل العناصر السيكولوجية التي تنتج عن

الحياة الاجتماعية .[4]

- **المحافظة على ثقافة المجتمع :**

كي يبقى المجتمع و يستمر يلزم له أن ينقل ثقافته الحالية إلى الأجيال اللاحقة حتى يقوم هؤلاء بدورهم عن طريق المدرسة بنقلها لغيرهم ، و يحتاج المحافظة على الثقافة ونموها عنصر الاستمرار المنظم لأنها نسيج معقد من العلاقات الاجتماعية التي توارثت بين الأجيال [5] .

- **تنقية الثقافة و تجديدها :**

فالثقافة في أي مجتمع قد تتضمن عناصر غير مرغوب فيها أي سلوك غير طبيعي خارج عن القيم الأخلاقية و العادات و التقاليد و الأعراف المتعارف عليها في المجتمع ، مثل هذا السلوك لا يرى المجتمع بقاءه و استمراره ، و تصبح المدرسة مسؤولة عن ذلك، كما ان عليها أيضا أن تعمل على تعريف بعناصر ثقافة أخرى كاحترام الأخر و التفكير العلمي و أساليب الإنتاج الجديدة كي تتجدد الثقافة فيتطور المجتمع .

- **خلق تجانس في الثقافة و تبسيطها :**

فالمدرسة مسؤولة عن تفاعل و مزج الثقافات المتباينة التي يصل بها المتعلمون إليها والتي قد تصل في بعض الأحيان إلى التنافر بحيث تتجانس عناصرها و يشترك فيها غالبيتهم ، كما انه من واجبات المدرسة تبسيط الثقافة التي اتخذت شكلا شديد التعقيد خصوصا في المجتمعات المتقدمة ، إذ أصبح من المتعذر على الطفل الإلمام بها و إدراكها و فهمها إلا بطرق ووسائل تعليمية تمكنه من ذلك.

- **التماسك الاجتماعي:**

كي يصبح الفرد عضوا في المجتمع و يعيش فيه و يتكيف معه عليه أن يشارك الأعضاء الآخرين ثقافتهم ، و المدرسة الناجحة هي التي تحقق هذه المشاركة بكافة الطرق ، و تحقيق المشاركة معناه " ربط الأفراد ببعضهم و تماسكهم و تعاونهم لخدمة مجتمعهم "[6].

إن العناصر الثقافية ، مادية كانت أو غير مادية ، هي منتجات لنشاط الإنسان ، فلا يمكن لفرد أن يزعم أن السيارة قد جاءت من ذهن قوة غير طبيعية ، فهي نتاج سلسلة طويلة من المخترعين الإنسانيين ، أضاف كل منهم شيئا إلى ما سبق اختراعه .

و هكذا الحال بالنسبة إلى معظم الأشياء المادية في مجتمعنا ، فالإنسان دون شك هو

مؤلف أو صانع هذه الأشياء، و هو الذي صنع بيديه و عقله كل المنتجات المادية و ابتكر وسائل استخدامها على مر العصور ، و ما السيارة الحديثة أو الطائرة ، أو الراديو ، أو المصنع الحديث إلى نتائج محسوسة لعمليات طويلة قام بها الإنسان ، كذلك الحال بالنسبة للعناصر غير المادية للثقافة مثل العادات و الخصال ، و المحرمات ، و المحظورات ، وكل القوانين و النظم الاجتماعية و الأخلاقية ، فهي عناصر صنعها الإنسان مثل ما صنع الأجزاء المكونة للسيارة، و نشأت و تراكمت بمرور الزمن و على ذلك يمكننا أن نؤكد الأصل الإنساني للثقافة و أن نقول أن الإنسان يصنع ثقافته بعقله و يديه.

2. مميزات الثقافة :

للثقافة مميزات خاصة تجعل منها ظاهرة فريدة و يمكننا أن نوضح أهم مميزاتها فيما يلي :

أ. الصفة التعليمية للثقافة :

الثقافة سلوك متعلم ، لا يوجد في الجهاز البيولوجي للإنسان ، و هي تتخذ شكل عادات جماعية تكتسب اجتماعيا ، يتعلمها الفرد مولده و في أثناء عملية التنشئة الاجتماعية . و في هذا الإطار اتخذت العديد من الدراسات دور المدرسة في نقل المعارف ، التراث ، الثقافة و التنشئة الاجتماعية حسب مقتضيات الواقع المعاش والبيئة العالمية المتغيرة باستمرار، ومن ناحية أخرى نجد دراسات أخرى تعطي وزنا أكثر للجانب النفسي و النمو السليم لشخصية الفرد ، و يتعلق الأمر هنا بدراسة العلاقات بين ما هو نفسي و ما هو نفسي ثقافي على مستوى الشخصية .

فالواقع الذاتي للفرد يتشكل بصفة واسعة في الوقت الذي ينسجم مع الواقع الموضوعي لعالم الثقافة ، و الواقع النفسي للفرد يتحقق أيضا بصفة ذاتية على ما عرفته الثقافة بصفة موضوعية على انه واقع ، و هكذا يصبح الاستبطان مرجع المعارف الاجتماعية لأننا نتكون من كل ما أودعته الثقافة فينا خلال مرحلة الإشراك ، كما لا يمكن فصل التجارب الشخصية عن الثقافة المحيطة ، و الخاصة بكل مجتمع ، و إذا قبلنا هذا التقارب بين منظوري علم النفس الاجتماعي و السوسيولوجيا المعرفية على ما قدمه التحليل النفسي و الثقافي ، و نشير إلى العلاقة الجدلية التي عن طريقها تولد الثقافة واقعا نفسيا ذاتيا يتحول بدوره إلى واقع ثقافي موضوعي ، و

هكذا يكون الفرد في الحالتين قد استبطن الحوادث الخارجية لتصبح جزءا من شعوره الشخصي وبإسقاطها من جديد ، فانه يحولها إلى واقع ثقافي موضوعي .[7]

فالفرد لا يتعلم الأعمال فحسب ، بل يتعلم الأفكار و المشاعر أيضا ، كالشعور بالتقدير و إتباع الطقوس الدينية ، و السلوكيات السوية و القيم الأخلاقية ، و مستويات ثقافتنا لما هو طيب و جميل ، صواب و خطا ، و يتعلم الطفل هذا السلوك الثقافي في سنواته القليلة الأولى ، وقد لا يتم الرابعة و الخامسة إلا و يكون قد طبع بوسائل العمل و التفكير و الشعور السائدة في ثقافته .

و إذا حدث أن ربينا طفلا انجليزيا في بيئة عربية ، و ربينا طفلا عربيا في بيئة انجليزية ، لوجدنا أن كلا منهما يعكس الثقافة التي ربي فيها و ليس ثقافة والديه ، و أن كل ما يحمله الطفل الانجليزي من طابع انجليزي (الملامح الأوروبية) ، أما طريقة جلوسه و مشيه ، و لغته ، و اتجاهاته ، وما يحبه و ما يكرهه فلن تكون إلا عربية خالصة ، و لعلنا نتبين الأثر القوي للثقافة إذا ربينا توأمين في ثقافتين مختلفتين فان كلا منهما في هذه الحالة يعكس الثقافة التي ربي فيها .[8]

ب. <u>الثقافة ظاهرة خاصة بالإنسان :</u>

يعيش الإنسان و كثير من أنواع الحيوانات و الحشرات في مجتمعنا، و لكن الثقافة وقف على الإنسان وحده ، فالحيوانات مثلا، الذئاب تنظم نفسها في شكل أسراب أوقطيع، أي مجتمعات حيوانية و تتميز بتقسيم العمل بين أفرادها و وجود نظام لحماية أعضائها من الأخطار الخارجية، و لكنها غير ذات ثقافة، كذلك النحل و النمل أمثلة معروفة لمجتمعات الحشرات و هي مقسمة إلى طبقات مختلفة لتستطيع أداء وظائفها المنوعة ، فالملكة و ذكور النحل على سبيل المثال، تنتج الأجيال الجديدة من النحل والشغالة تقوم ببناء الخلايا و جمع الرحيق ، و هناك من النحل من يقوم بحراسة أعضاء الجماعة ضد هجوم الحشرات الأخرى، و هكذا، ولكن النحل لا يتعلم لكي يؤدي هذه الوظائف المختلفة، بل يولد بغرائز أو دوافع، و هي أنماط فطرية من النشاط أو استجابات أو أوتوماتيكية لمثيرات، و الجيل من النحل مثلما ستعيش الأجيال السابقة من النحل و مثلما ستعيش الأجيال اللاحقة .

أما الإنسان من ناحية أخرى فلا حول له عند ولادته، و استعداده للعيش في جماعات يفرض عليه نتيجة لعجزه هذا.

و لا يولد الإنسان و لديه أنماط فطرية محددة من النشاط ، بل يولد و لديه فقط بعض الانعكاسات المتصلة بحاجاته العضوية ، و هو بالإضافة إلى هذا يمكن تكيفه ، و عليه أن يتعلم التكيف مع البيئة الخارجية ، و أن يؤدي وظائف معينة في التنظيم الاجتماعي ، و نظرا لان الإنسان يتعلم التكيف ، نجد أن تكيفه لا يكون كاملا تاما مثل تكيف النحل مثلا ، كما انه لا يكون تكيفا جامدا أو محدودا ، و لذلك يمكنه أن يعيد تكيفه إذا ما تغيرت الظروف ، و لا تنمو الاستعدادات البيولوجية للثقافة عند الإنسان إلا إذا ولد و تربى في وسط جماعة إنسانية عاملة ، فإذا لم يولد في مثل تلك الجماعة، فان تلك الاستعدادات لا تنمو .

و يرى " كنجسلي ديفز " "KINGSLEY DAVIS" " أن الشخص الذي لا يتصل بالكائنات الإنسانية لا يمكنه بعد سن العاشرة أو الخامسة عشر أن يحصل على طبيعة إنسانية كاملة إذا ما القينا به بين كائنات إنسانية "[9].

ج- الصفة الناقلة للثقافة :

لا تعلم الثقافة فحسب ، بل تنتقل من إنسان إلى إنسان و من جيل إلى جيل، والحيوانات قادرة على كثير من التعلم ، و لكن ثمار تعلمها لا يمكن نقله بالرموز مثلما تنتقل ثقافة الإنسان ، و تعني هذه الصفة من صفات الثقافة أن الإنسان يستطيع أن يبني فوق ما بنته الأجيال السابقة و انه ليس مجبرا على البدء من جديد مع كل جيل جديد.

و الوسيلة الرئيسية للنقل الثقافي هي اللغة التي أطلق عليها " القانون أو الدستور الأساسي للإنسانية" و هي من أهم عناصر الثقافة التي يتعلمها الطفل، و المفتاح الأول الذي يحصل من طريقه على كثير من تلك العناصر، و هي الوسيلة الرئيسية التي تجعل من الممكن نقل الأفكار بسهولة و دقة نسبية بين أفراد مجتمع ما، و التي تساعدهم على نقل خبراتهم الماضية و حفظها، و كل لغة من اللغات نتيجة للخبرات العامة لأفراد جماعة ما، و هي لهذا تعكس تاريخهم و ميولهم إلى درجة كبيرة.[10]

د. الصفة الاجتماعية للثقافة :

تنشا الثقافة و تتطور عن طريق الاتصال الإنساني بين الأفراد و الجماعات وتتكون الثقافة من مجموعة الاتصالات هذه و من النتائج المادية لها ، و هي على هذا الأساس ليست أمرا فطريا أو غريزيا أو شيئا يكتسب نتيجة للوراثة البيولوجية ،

بل يتعلمها كل فرد نتيجة لخبراته بعد مولده في جماعة إنسانية ، أو بمعنى أخر ، تعد الثقافة نتيجة لخبرات الجماعة و سلوكا يشترك فيه أعضاؤها بعضهم مع بعض.

ه. الصفة المثالية للثقافة :

يقول "مردوك" " إن العادات الجماعية التي تتكون منها الثقافة تصور إلى حد كبير كمعايير أو أنماط مثالية للسلوك " [11] .

يعني هذا أن أعضاء الجماعة ينظرون إلى الثقافة كنمط مثالي من أنماط السلوك يفترض فيهم أن يسيروا و فقه ، و يجب علينا أن لا نفهم أن هذه المثالية مثالية عامة بل لكل ثقافة مثلها المستمدة من أوضاعها الاجتماعية .

و. طبيعة الانتشار الثقافي:

يطلق على انتقال العناصر الثقافية من فرد إلى فرد أو من مجتمع إلى آخر عبارة " الانتشار الثقافي" و هناك نوعان من الانتشار الثقافي :

1. انتشار ثقافي داخل المجتمع نفسه INTRO SOCIETY.
2. انتشار ثقافي بين المجتمعات INTER SOCIETY .

و بوجه عام يتأثر الانتشار الثقافي داخل المجتمع نفسه بالعوامل الآتية:

- الاعتراف بفائدة العنصر الثقافي الجديد أو بالحاجة إليه .
- و جود أو عدم وجود عناصر في الثقافة يمكن أن تسد الحاجة التي قد يسدها العنصر الثقافي الجديد ، يؤثر في رفض أو قبول ذلك العنصر .
- وجود عناصر في الثقافة تتعارض وظيفتها مع وظيفة العنصر الثقافي الجديد يعوق انتشار ذلك العنصر بل قد يمنعه.
- قد يساعد المركز الاجتماعي لمن يدخل عنصرا ثقافيا جديدا الإسراع بقبول ذلك العنصر.

إن الانتشار الثقافي بين المجتمعات فهو ذو أهمية بالغة و ليس أدل على أهمية من أن " لينتون" يقول "بان 90% من العناصر الثقافية في أمريكا قد نشأ في بلاد أخرى غير أمريكا ، و انه انتقل إليها على ممر العصور " [12].

و تلعب العوامل الآتية دورا هاما في انتشار العناصر الثقافية بين المجتمعات :

- ❖ الاتصال بين الثقافات أمر أساسي لانتشار العناصر الثقافية من مجتمع إلى آخر، والثقافات البسيطة هي ثقافات الشعوب المنعزلة، و لا شك أن سهولة الاتصال

بين المجتمعات تسهل عملية الانتشار الثقافي و التشابه بين الثقافات .

- ❖ يسهل انتشار العناصر المادية عن العناصر غير المادية، فيسهل مثلا انتشار آلة من الآلات عن انتشار التقاليد و الفلسفات و النظريات العلمية.
- ❖ الإحساس بالحاجة إلى العنصر الثقافي الجديد أو بفائدته.
- ❖ وجود أو عدم وجود العناصر المنافسة للعنصر الثقافي الجديد .

و هناك عوامل متعددة أخرى تساعد على نقل عناصر الثقافة بين المجتمعات المختلفة منها ، التجارة ، الحروب، تبادل الأزواج ، وسائل الإعلام ، البعثات العلمية ، السفر ، الملتقيات العلمية و الفكرية ...الخ.

و هناك عامل مهم تجدر الإشارة إليه فيما يتعلق بتضمين العنصر الجديد في الثقافة والنتائج الاشتقاقية لذلك العنصر ، و هي تلك النتائج التي لا تتصل اتصالا مباشرا باستخدام العنصر الجديد بل تشتق منه ، فاختراع آلة ما يسبب تغيرات سلوكية مباشرة في المجال الذي تستخدم فيه هذه الآلة ، و لكن هذه التغيرات تنتج تغيرات أخرى في نواحي أخرى من الثقافة .[13]

و يمكننا أن نوضح اثر الاختراع على الثقافة بما حدث في الحياة العالمية نتيجة لاستخدام السيارات في النقل في الطرق في السنوات الأولى من القرن العشرين ، و كثيرا من التغيرات كانت اشتقاقية أكثر منها مباشرة :

1. الأسرة :

- أنماط جديدة من الترويح .
- تنظيم جديد لميزانية الأسرة .
- أصبح امتلاك السيارة رمزا للمكانة الاجتماعية .
- مشكلات سلوكية للشباب.

2. التنظيم الاقتصادي :

- أعمال و صناعات جديدة.
- ظهور مشكلة النقل بالسكك الحديدية أمام مشكلة النقل بالسيارات .
- التامين
- إنشاء استراحات في الطرق التي تمر بها السيارات .

3. الحكومة و السياسة :

- ضرائب إضافية .
- أعباء على النظام العمومي.
- قوانين جديدة و محاكم (العدالة).
- مصروفات على الطرق و مستشفيات .
- اتساع المدن المتزايد.

4. الدين :

- قيم مادية جديدة .
- علاقات جديدة بين دور العبادات و المنطقة التي تعمل بها.

5. التربية :

- المدارس و المؤسسات التعليمية ككل.
- أنواع جديدة من المدارس الفنية و دور الشباب و الثقافة .

6. الترويح :

- الخروج للنزهة في أيام العطل .
- انتشار الحدائق العامة .
- إنشاء فنادق في الطرق العامة .
- إنشاء شواطئ عامة (قضاء العطل).

و هكذا تغيرت كل نواحي الثقافة العالمية تقريبا منذ أخذت السيارة في الانتشار، باعتبار أن الثورة الصناعية التي عرفها العالم ساهمت بشكل كبير في تطوير و تقدم المجتمعات و أثرت تأثيرا ايجابيا على جميع القطاعات الاجتماعية ، الاقتصادية ، الثقافية ... الخ.

ساهم نقل التكنولوجيا في تطوير هذه المجتمعات مساهمة فعلية في تغيير الثقافات بفضل الآليات المختلفة من تعليم و نشر للثقافة المادية و غير المادية ، و يتضح هذا من خلال التباين الرئيسي بين المجتمعات الرأسمالية و الاشتراكية ، و بين المجتمعات المتطورة الصناعية و المجتمعات الزراعية المتخلفة نتيجة مكانة العلم و المعرفة والاستغلال الأمثل للموارد البشرية و توجيهها توجيها عقلانيا يتماشى و التطور الفكري والمعرفي و التكنولوجي (تأثير العلم على الثقافة).

ثانيا- في دلالات وأبعاد مفهوم التربيـــــــة:

تختلف مفاهيم الكلمات و المصطلحات من شخص لآخر ، و من مجتمع لآخر ، ومن ثقافة وأخرى تبعا لتفاوت الدلالات أو السمات الجوهرية التي تكون المفهوم الحقيقي لهذه المصطلحات في سياقها اللغوي أو الثقافي أو الاجتماعي أو الفني أو الفلسفي تبعا لدرجة حضارة المجتمعات و صرامة ثقافتها و ما تحمله الكلمات من معان و دلالات في واقع السياق الاجتماعي .

وبالنظر إلى انطواء مفهوم التربية على معاني كثيرة، أجد من الضروري أن يكون القاموس هو المصدر الذي نستطيع أن نبدأ منه، ليكون لحديثنا أساس أكثر صلابة . ضمن هذا السياق، أشير إلى أن كلمة التربية مشتقة من الفعل الماضي المجرد الثلاثي " ربا" و مضارعها " يربي" و تتضمن معنى النمو و الزيادة العينية ، قال تعالى " يمحق الله الربا و يربي الصدقات " (البقرة 267)،أي يمحق الله الربا الزيادة العينية في نماء الأموال و يزيد الله الصدقات .

و يمكن أن يكون اشتقاقها من الفعل الماضي " ربى" و مضارعه " يربي " و هي تحمل معنى تغذى و ترعرع و حتى تقبل هذه المعاني اللغوية في السياق الاجتماعي لكلمة التربية في الوقت الحاضر ينبغي أن تأخذ معاني التربية و الترعرع و الزيادة والاصطلاح و التقويم في إطار النماء الإنساني المتصل يترعرع القوى الإدراكية والقوى الانفعالية الحركية ، لإصلاح شخصية الإنسان و تقويم سلوكه في الحياة الدنيا.[14]

ويكاد لا ينفصل المعنى اللغوي لمفهوم التربية ، أو لا يختلف عن المعنى الاصطلاحي له، حيث نجد أن من المحاولات الحديثة لاستخدام المفهوم في علم الاجتماع، كانت تلك المحاولات التي ترى أن التربية " عملية نقل المعارف والخبرات و المهارات و العادات من فرد إلى فرد و من جيل إلى جيل مع تحسينها و توسيعها ".

و أنها " وسيلة حسنة لضمان التكيف المطلوب بين الدوافع الداخلية و الظروف الخارجية ".

و أنها " عملية تنمية و ترقية لكل ما في المجتمع من مصادر و طاقات بشرية وموارد طبيعية " و أنها هي " الحياة" و أنها " صنع المواطن الصالح" وإنها " تكييف الإنسان نفسه لما يعلن عن الله في البيئة البشرية " و هي عملية تعليم و تدريب تجرى في مؤسسة مخصصة للتعليم و التعلم .[15]

فالتربية ذلك الكل المتكامل من قيم و عادات و تقاليد لإعداد الفرد وفق منهاج المجتمع.

و بعد هذا العرض عن التربية ، فهل هناك تعريف شامل للتربية يمكن اعتماده ؟

نعم يمكن تعريف التربية بالصيغة الآتية :" التربية هي ضبط التعلم و توجيه نحو أهداف جيدة التحديد يمكن تحقيقها في حياة جماعة المتعلمين ، على أيدي هيئة مدربة معدة إعدادا علميا للتعليم و التنظيم و الإدارة المدرسية ، بواسطة منهج دراسي محكم التخطيط، وبمواد ووسائل مناسبة ، و أصول وفنون وأساليب و طرائق صحيحة ، في بيئة و أبنية وتسهيلات معدة خاصة لذلك"[16] .

و في هذا السياق فإننا نستخلص أن هناك تباين في مفهوم التربية ، داخل المجتمعات الإنسانية ، و يرجع ذلك إلى اختلاف الأوضاع الاجتماعية في هذه المجتمعات من حيث درجة حضارتها و فلسفتها و ارتباط ذلك كله بوظيفة النظام التربوي ، الذي يشكل أداة صياغة المجتمع في ضوء إمكاناته و تطلعاته ، لذلك فان التربية تختلف من مجتمع إلى أخر .

إن التربية في المجتمعات النامية من حيث فلسفتها و أهدافها ووظيفتها تختلف عما هي عليه في المجتمعات الصناعية المتقدة ، بسبب التباين في نوعية الأدوار التي تقع على عاتق التربية كأداة للنهوض بهذه المجتمعات في سياق درجة أوضاعها الفكرية والاجتماعية و الاقتصادية و التكنولوجية ، لذلك فانه من الطبيعي أن تختلف التربية من مجتمع إلى أخر ، تبعا لاختلاف أدوارها ووظائفها و أهدافها في المجتمعات الإنسانية ، وفي المقابل ، اختلاف هذه المجتمعات في درجة ثقافتها و أوضاعها الاجتماعية والاقتصادية و تطلعاتها المستقبلية و هذا يعني أن اختلاف مفاهيم التربية في المجتمعات تعود إلى :

1- اختلاف درجة حضارة المجتمعات و ما يسود فيها من أوضاع ثقافية و اجتماعية و إنسانية.
2- الكيان الاجتماعي و ما يسود فيه من نظم ثقافية و اجتماعية و اقتصادية و سياسية و دينية .
3- ما يحمله المجتمع من تطلعات و أهداف نحو التنمية الاجتماعية و الثقافية .
4- دور النظام التربوي و مسؤولياته في تحقيق أهداف المجتمع .

5- دور الأسرة في نقل الموروث الثقافي التربوي .

و على هذا الأساس فان لكل ثقافة مجتمع أطرها الخاصة في تشكيل سلوك أفرادها، كما أن الشخصية الإنسانية لا يمكن فهمها أو تحديد أبعادها إلا في إطار الثقافة التي تنشا فيها و تتفاعل معها ، و هنا يظهر دور التربية في نقل عناصر الثقافة مع الاهتمام في هذا الاتجاه بعملية التنشئة الاجتماعية باعتبارها جزء من الثقافة لأية جماعة من الجماعات و كذلك مدى امتثال الأشخاص و تكيّفهم مع المتطلبات الثقافية للمجتمع ، اومدى صراعاتهم معها ، مع بيان تأثيرات التنشئة في الشخصية داخل المجتمعات.

حيث تشمل عملية التنشئة الاجتماعية على مجموعة من المدخلات او المكونات البنائية التي يكتسب الفرد من خلالها بعض خصائص شخصيته ، و التي منها القيم والرموز ، و الأخلاق و المعتقدات ، و المفاهيم ، و المعايير و الأعراف و العادات والمهارات التي يستعملها الإنسان في تعامله مع بيئته.[17]

1. <u>التربية عملية إنماء و توجيه للفطرة الإنسانية :</u>

إن فطرة الإنسان ، ظاهرة من ظواهر الوجود ، بل آية من آيات الله قابلة للتعلم ، بفضل ما استودع الله من هذه الفطرة من إمكانات عقلية و حيوية و نفسية و روحانية و جسمانية و اجتماعية و انفعالية ، و لكن ظاهرة تعلمها مسالة متروكة للتأمل الإنساني و البحث العلمي ، و فسرت نظريات التعلم الإدراكية أن تعلم الإنسان يقوم على آلية التبصر و التأمل و التنظيم وإدراك العلاقات و التفاعل مع الواقع ، و التمثل و التوازن و معالجة المعلومات و غير ذلك من عمليات عقلية و إدراكية ، و أن من قدر الإنسان أن ينمو بالتعلم و لتمثل العلم و المعرفة و السلوك ، ما دام قادرا على اكتسابها بفضل الإمكانات العقلية و السمعية و البصرية و الحسية الأخرى ، إضافة إلى ما يتوصل إليه من منهجية و تقنيات ، فالإنسان فطرة قابلة للتعلم و النمو عن طريق المعرفة و عمليات التربية ، (أنظر شكل 1) :

شكل(1) توجيه الفطرة الإنسانية

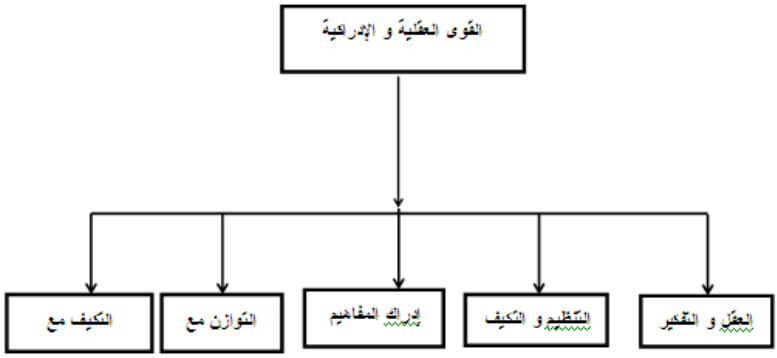

- يقصد بالقوى العقلية و الإدراكية إمكانيات العقل ، و قدرته على التفكير ، واكتساب المعرفة ، و تعلم المفاهيم ، ووعي المدلولات ، و فهم المعاني ، وتمثل المعرفة سلوكا في البنى العقلية بهدف إنمائها .
- و من خصائص القوى العقلية و الإدراكية ، النشاط الذهني الكامن و استخدام الرموز و التجريد ، التوليد و العمليات المنطقية ، و حل المشكلات ، و تعلم المفاهيم ، و التأمل و التذكر و النظر و التنظيم الإدراكي ...الخ.
- كيف تعمل التربية على إنماء القدرات العقلية و الإدراكية ؟ بما أن التربية هي عمليات الضبط و التوجيه للسلوك المتعلم ، فانه يتوجب على التربية أن تعنى بإنماء و توجيه الخصائص السلوكية المكتسبة في إطار القوى العقلية والإدراكية، و هذا يعني تنظيم و تفعيل خصائص القوى العقلية و الإدراكية ، و جعلها ذات جودة عالية ، و نوعية راقية و تشكيل دوافع إدراكية نحو الإنسان و المجتمع ، وتشكيل اتجاهات عقلية نحو قبول التغير و التكيف مع الواقع الاجتماعي . [18]

لا شك أن المضمون التربوي الذي يدرسه المتعلمون في مدارسهم يشكل نمطا ثقافيا معينا اتجاه موضوعات الحياة ، و بما أن العلاقة عضوية بين الفلسفة الاجتماعية والفلسفة الثقافية و التربوية و أهدافها ، فان ذلك يستدعي أن يتم اختيار المضمون التربوي باعتبارها خبرات تعلمية في سياق المضمون الثقافي ، الذي تطرحه الفلسفة الاجتماعية ، لتفسير موضوعات الحياة المختلفة ، لتحقيق درجة من الائتلاف الثقافي ، بين ما تحمله الفلسفة ، و بين ما تحمله الأجيال من مفاهيم عن ظواهر الحياة و قضاياها الكبرى.

2. اتجاهات التربية في المجتمع:

تنوعت وتعددت المداخل المعرفية، التي تناولت المجتمع وقدمت بدائل متباينة لتطوره ومن أهم هذه الاتجاهات التربوية: الاتجاه الاجتماعي، الثقافية، الإنساني،الفردي. (أنظر شكل 2).

شكل (2) الاتجاهات التربوية

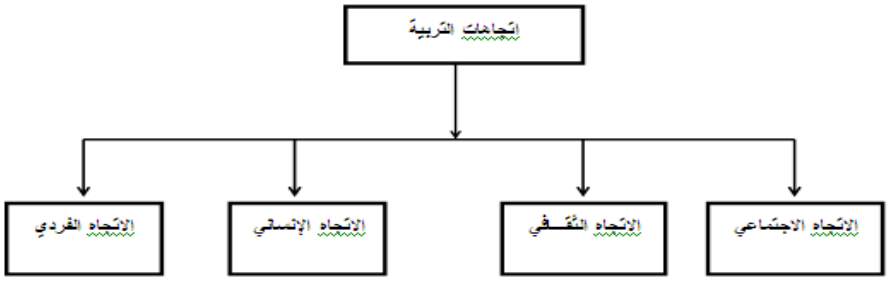

أ . الاتجاه الاجتماعي :

تبني الصيغة الاجتماعية في العمل التربوي ، و ذلك بتصميم العملية التربوية على العوامل و الخصائص التي تؤكد على النظام الاجتماعي و تماسك المجتمع و المحافظة على كيانه و العمل على تطويره ، و أن عمليات التربية في هذا الاتجاه تسعى لمساعدة الفرد على التكيف مع الواقع الاجتماعي ، بهدف حماية الفرد عن طريق آليات التنشئة الاجتماعية .

ب. الاتجاه الثقافي :

تعمل التربية على جعل الأفراد يتمثلون النموذج الثقافي السائد في المجتمع بهدف إكسابهم الكفاية الاجتماعية داخل ثقافتهم عن طريق تعلمهم قيم الجماعة و نظام الحياة فيها و ممارستهم السلوك الثقافي المقبول ، لتمكينهم من التكيف بقناعة مع أساليب الحياة داخل المجتمع ووفق تطلعات الأنساق الاجتماعية المستمرة لهذه القيم و المبادئ المتفق عليها داخل النسق العام (المجتمع).

و لا شك أن الاتجاه الثقافي في التربية ، يمثل خطوة أولية ، في التحرك نحو الاتجاه الإنساني في التربية .

ج. الاتجاه الإنساني في التربية :

يتبنى هذا الاتجاه في التربية على أنها عملية إنماء إنساني ، فهي تركز على الخصائص

الإنسانية في التعلم و المتمثلة في القوى العقلية و الإدراكية ، و القوى الوجدانية والأخلاقية ، و القوى النفسية و الروحية و الجسمية إضافة إلى المعرفة و الثقافة و التي تؤكد على ضرورة البعد الإنساني العالمي في التربية و تكامل إنمائها ثقافيا و أخلاقيا.

إن الاتجاه الإنساني في التربية ، يعزز الخصائص الإنسانية على مستوى الفرد والجماعة بالإعلاء من السمات العقلية و النفسية ، و الروحية و الوجدانية و الأخلاقية ، فضلا عن نشر الثقافة بين الشعوب ، لغرض تكاملها في خدمة المجتمعات الإنسانية .

د. الاتجاه الفردي في التربية :

يقوم هذا الاتجاه على الإعلاء من مفهوم الطبيعة الحيوية (البيولوجية للإنسان) و مرونة الطبيعة البشرية ، و فطرة حريتها و إرادتها و قدرتها على التكامل ، فيما بين مكوناتها الذاتية نفسها ، و تباين إمكانات الطبيعة البشرية بين الأفراد ، و كذلك استعداداتها في الاستجابة للمثيرات التعليمة في البيئة.

حيث يركز هذا الاتجاه على إنماء شخصية الفرد بأبعادها العقلية و الانفعالية و الحركية ، دون أي اكتراث للاعتبارات الاجتماعية التي قد تتعارض مع هذا التوجه ، ان المجتمع المتطور ، هو حصيلة اجتماع أفراد ، عملت التربية على إنماء قدراتهم و خصائصهم الفردية داخل النظام الاجتماعي .[19]

إن العناصر الثقافية ليست مسالة موروثة بيولوجيا بل هي عناصر يكتسبها الإنسان بالتعلم ، و حتى تتمكن الأجيال من تراكم ارثها الثقافي و نقله عبر الأجيال و ان جميع هذه الأنواع تتكامل في خدماتها للمجتمع من اجل إنمائه و تنميته عن طريق نشر التعليم والثقافة بين أفراد المجتمع و نقلها بين الشعوب و تطوير منهجية التفكير بين الأفراد والمجتمعات و التوعية بالأدوار الاجتماعية و أهميتها للتنمية الشاملة ، و إعداد الطاقات البشرية اللازمة للتنمية و تدريب الأفراد على استخدام الآليات المعرفية و العلمية والثقافية في حل المشاكل و التوازن بين متطلبات التنمية و معطيات الثقافة و التربية .

ثالثا– الثقافة و علاقتها بالتربية:

العلاقة بين الثقافة و التربية في مجتمع ما علاقة وثيقة ، فالتربية عنصر هام من عناصر الثقافة ، و إذا كان "ويسلر" « Wissler » و غيره من العلماء لم يذكروها ضمن عناصر الثقافة إلا أن ذلك في الواقع لأنهم يرونها وظيفة تدخل في نطاق الوظائف التي تقوم بها عناصر أخرى من العناصر الثقافية ، فهي وظيفة من وظائف الأسرة ، و

رجال الدين ،والحكومة ، و لما كانت التغيرات التي تحدث في عناصر الثقافة يؤثر بعضها في بعض كما ذكرنا ، فان تأثير عناصر الثقافة على التربية، و تأثير التربية على الثقافة أمر مؤكد.

و لعل ذلك الاتصال الوثيق بين الثقافة و التربية هو الذي حدا "بسادلر" « Sadler" بان يذكرنا بأن لا ننسى في دراستنا للنظم التعليمية " أن هناك عوامل خارج المدرسة قد تكون أكثر أهمية مما يدور في داخلها ، و أن هذه العوامل تتحكم فيما يدور في المدرسة و تفسره"، و هذا قول صحيح ، فكل نظام تعليمي ، بأهدافه، و طلابه ، و ما يدرس لهم ، و كيف يدرس لهم ، بإدارته ووسائل الإشراف عليه، و معلميه ، يتأثر دائما بالعوامل السياسية ، و الاقتصادية ، و الاجتماعية ، و الدينية ، والفكرية ، و بكل القيم و الاتجاهات و المثل ، و بالآداب و الفنون السائدة في المجتمع الذي يقوم فيه ذلك النظام.

وعلى هذا الأساس، يتضح أن الثقافة والتربية، عبارة عن نظامين جزئيين يتعايشان ويتجاوران ويتداخلان مع بعضهما البعض. إذ هما في تفاعل مستمر، واعتماد متبادل، ولا يمكن تصور إحداهما دون الآخر. والحقيقة، لقد حظيت شبكتهما العلائقية المعبرة عن الجماعة الاجتماعية والنسق الاجتماعي في آن واحد، باهتمام متزايد في مختلف الدوائر العلمية، وخاصة علماء الاجتماع والانثروبولوجيا ، وغيرهم ممن تصوروا بوثقة تلاقي الثقاة والتربية كوحدة ثقافية في المقام الأول.

ولا غرو، أن توحد هذه الكتلة الثقافية الأفراد بمجتمعاتهم ومشاركتهم في عدد من القيم والعادات والمعايير والأهداف المشتركة والمعتقدات ...الخ. وغير خاف، أن الاهتمام المتنامي بالثقافة والتربية وترشيدهما، بات مطلبا ضروريا لولوج مجتمع المعرفة.

الهـــوامـــش:

1- وهيب إبراهيم سمعان ،الثقافة و التربية في العصور القديمة ، دار المعارف بمصر ، 1961، ص 13 .

2- المرجع نفسه ، ص 14.

3- نجيب اسكندر إبراهيم ، لويس كامل مليكه ، رشدي فام منصور : الدراسة العلمية للسلوك الاجتماعي ، القاهرة ، مؤسسة المطبوعات الحديثة ، 1976، ص 172.

4 – WHITE LESLIE A. k « CULTUROLOGICAL VS PSYCHOLOGICAL INTERPRETATION OF HUMAN BEHAVIOR » AMERICAN SOCIOLOGICAL REVIEWk ; I 2 : 686 -698.

5– احمد كمال احمد و آخرون ، الخدمة الاجتماعية في المجالات التعليمية ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، 1965، ص 13.

6– فاطمة مصطفى الحاروني، خدمة الفرد في محيط الخدمات الاجتماعية ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، 1975، ص 54.

7– دوني سزابو و آخرون " المراهق و المجتمع " دراسة مقارنة ، ترجمة الطاهر عيسى و الأزهر بوغموز ، د.م.ج ، الجزائر ، 1994 ، ص 81 .

8 – Newman , Horatio H , Multiple Human Birtbs (New York) , pp . I89 – I 99 .

9– نجيب اسكندر إبراهيم ، و آخرون ، مرجع سابق ، ص 19.

10– المرجع نفسه ، ص 19.

11– المرجع نفسه ، ص 20.

12– المرجع نفسه ، ص 33.

13– المرجع نفسه ، ص.ص 37.38.

14– ناصر الدين البيضاوي ، أنوار التنزيل و أسرار التأويل ، تفسير البيضاوي ج1 ، الحلي ، القاهرة ، ص 5.

15 – إبراهيم ناصر، أسس التربية ، ط2، دار عمان للنشر و التوزيع ، عمان ، 1989، ص 17.

16 – فيليب فنكس ، فلسفة التربية ، ترجمة محمد النجيحي، دار النهضة المصرية ، 1965، ص 37.

17 – محمد عبده محجوب و آخرون ، التنشئة الاجتماعية ، دراسات انتربولوجية في الثقافة و الشخصية ، دار المعرفة الجامعية ، مصر ، 2005، ص 37.

18 – محمد محمود الخوالدة ، مقدمة في التربية ، دار المسيرة للنشر و التوزيع و الطباعة ، عمان ، 2003، ص، ص 75،76.

19– فؤاد أبو حطب و آمال صادق ، علم النفس التربوي ، الانجلو مصرية ، القاهرة ، 1981، ص،ص401–402.